

## السنن الإلهية في ضلال القرآن (دراسة وتحليل)

د. حسن ناصر سزار

رئيس قسم الدراسات الإسلامية وعلوم القرآن

كلية التربية - جامعة حجة

### مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، أحمده وأستعينه وأستعديه، وأستغفره وأتوب إليه، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد وآله الطاهرين وصحابته الراشدين

فهذا بحث حاولت من خلاله تقديم دراسة تحليلية عما ورد على لسان الدين (\*) سيد قطب في تفسيره الضلال، عن السنن الإلهية التي بها يسير هذا الكون، وهذا الإنسان وهذه الحياة، وذلك لما لهذا الموضوع من أهمية في حياة الأمة في عصرنا وفي كل العصور، فالعودة إلى القرآن الكريم الذي يظهر للمسلمين سنن الله في الأرض أمر غاية في الأهمية، فهم ليسوا بدعاً في الحياة، فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافاً، وإنما هي تتبع هذه السنن، فإذا نحن درسناها تكشفت لنا الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لنا الأهداف من وراء الوقائع، فهذا سيد يؤكد حقيقة نعلنها هنا لكل من يريد النهوض بهذه الأمة، ولكل من يعيش بعيداً عن سنن النهوض : أيضاً " والأمور لا تمضي في الناس جزافاً، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً، فهناك نواميس ثابتة تتحقق، لا تتبدل ولا تتحول، والقرآن يقرر هذه الحقيقة، ويعلمها للناس، كي لا ينظروا إلى الأحداث فرادى، ولا يعيشوا في الحياة

(\*) انظر لترجمته لاحقاً

غافلين عن سننها الأصلية، محصورين في فترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود من المكان، ويرفع تصورهم لارتباطات الحياة وسنن الوجود، فيوجههم دائماً إلى ثبات السنن واطراد النواميس، ويوجه أنظارهم إلى مصداق هذا فيما وقع للأجيال قبلهم، ودلالة ذلك الماضي على ثبات السنن واطراد النواميس". (\*)

لذلك اختار الباحث هذه الدراسة من الظلال لأنه يحمل في ثناياه كنوزاً وكنوزاً، وكان سيد قد تعمق في تحليله للآيات المرشدة لسنن الله سبحانه وتعالى، ولعلنا هنا نسهم في جمع هذه النظرات واللطائف التي نثرها سيد هنا وهناك

فكان عنوان البحث السنن الإلهية في ظلال القرآن، وقد اشتمل على

مقدمة ومبحثين

- المبحث الأول إشارات سريعة للتعريف بالمؤلف (سيد) والمؤلف (الظلال).
- المبحث الثاني السنن الإلهية حقائق وميادين.
- المطلب الأول حقائق يجب التأكيد عليها.
- المطلب الثاني مجالات وميادين السنن الإلهية
- الميدان الأول سنن الله مع المؤمنين
- الميدان الثاني سنن الله في الدعوات
- الميدان الثالث سنن الله مع الكافرين
- الميدان الرابع سنن الله مع المكذبين
- الميدان الخامس سنن الله في هلاك الأمم
- الميدان السادس سنن الله في تغيير حال الناس
- الميدان السابع سنن الله في ميراث الأرض

وبحثي هذا دعوة للباحثين في هذا المجال لمزيد من الدراسة لهذا الموضوع

لحاجة الأمة إليه

## المبحث الأول: التعريف بالمؤلف والمؤلف

عند الحديث عن أسلوب الأستاذ سيد قطب في تناولاته المتفرقة في تفسيره الظلال عن سنن الله - سبحانه وتعالى - يجدر بنا بداية أن نتعرف على شخصية المؤلف (سيد) وتفسيره (الظلال) فمن هو سيد قطب؟ هو لسان الدين سيد بن الحاج قطب إبراهيم حسين شاذلي<sup>(1)</sup> ويعود أصله إلى أصل هندي<sup>(2)</sup>، ولد في العقد الأول من القرن العشرين وتحديداً في اليوم التاسع من شهر أكتوبر ( 1906م) في قرية (موشة) إحدى قرى محافظة أسيوط جنوب العاصمة المصرية (القاهرة)

نشأ - سيد - في جو أسري متميز، فقد كان والده عميداً للأسرة، وكان كريماً مضيافاً، يحمل قدراً من المعرفة والثقافة، ويملك وعياً سياسياً،

---

(1) عبد الله الخباص سيد قطب الأديب الناقد، مكتبة المنار، الطبعة الأولى ( 1983م) ص 79 ولقب (لسان الدين) أطلقه عليه السيد محب الدين الخطيب رئيس تحرير مجلة الأزهر الذي قدم لكتاب سيد قطب (دراسات إسلامية)، وهي منشورة في كتاب (سيد قطب أو ثورة الفكر الإسلامي للكاتب محمد علي قطب، ص 112 - 115.

(2) أكد ذلك سيد قطب للشيخ أبي الحسن النعوي وذلك في معرض رده على دعوة وجهها له لزيارة الهند فقال ( بلى وعندي باعثن إلى هذه الزيارة، الباحث الديني، والباحث الطبيعي، أما الباحث الديني فواضح لأنني أريد أن أزور هذه الأمة الإسلامية العظيمة، وأما الباحث الطبيعي فلأن جدنا السادس كان هندياً، وهو الفقير إلى الله (عبد الله) ولا تزل السحنة الهندية موروثة في أسرتنا) وقد شاهدت برنامجاً وثائقياً يتحدث عن السلطان محمد قطب الذي أسس للنهوض الحضاري الإسلامي في حيدر آباد قبل ثلاثة قرون

❖ أبو الحسن علي الحسيني الندوي، ولد بقرية تكية مديرية رائتي بريلي الهند عام 1332هـ / 1913م، تعلم في دار العلوم - ندوة العلماء - والتحق بمدرسة الشيخ أحمد علي في لاهور، عضو في مجمع اللغة العربية بدمشق، مؤسس المجمع العلمي الإسلامي بالهند، رئيس مجلس أمناء مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، توفى معتكفاً في مسجد قريته تكية يوم الجمعة 24 رمضان 1420هـ - الصفحة العدد 708، السنة 16 بتاريخ 2000/1/20م

❖ السحنة قال الفيروزيادي (السحنة السحناء لبن البشرة والنعمة والمهبة)، القاموس المحيط، الطبعة الثانية، ص 1554

اشترك في صحيفة الحزب الوطني اليومية (اللواء)، وكان عضواً نشطاً في الحزب، شارك في التحضير لثورة 1919م، وكذلك كانت أمه من أسرة كريمة مرموقة، متدينة، تكثر الصدقة، وتحب سماع القرآن هكذا نشأ - سيد - في هذا الجو الأسري الذي ساعده إلى حد كبير على التحصيل العلمي في وقت مبكر، حيث التحق بالمدرسة عام 1912م، وحفظ القرآن وهو في سن العاشرة، وحمل الشهادة الابتدائية سنة 1918م، وفي عام 1920م غادر - سيد - قريته إلى القاهرة ليواصل تعليمه، حيث تخرج مجازاً في اللغة العربية، ليمارس عمله الوظيفي مدرساً ثم مفتشاً في وزارة التربية والتعليم<sup>(3)</sup>.

له العديد من المؤلفات والدراسات الفكرية والحركية والأدبية من أبرزها تفسيره الشهير (في ظلال القرآن)، حُوكم بتهمة التخطيط ضد النظام المصري، وأُعدم شنقاً في فجر 29 أغسطس 1966م<sup>(4)</sup>.

### في ظلال القرآن :

يقع الظلال في أربعة آلاف وست عشرة صفحة من القطع الكبير، كما في الطبعة الحادية والثلاثين، وقد طبع عدة طبعات، وترجم إلى عدة لغات، مثل الإنجليزية والفرنسية والفارسية والتركية والإندونيسية وغيرها

(3) انظر سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد صلاح الخالدي، دار القلم، الدار الشامية، الطبعة الأولى، 1991م، ص 33 وما بعدها، ومنهج سيد قطب في الدعوة جمال الدين شبيب دار البشير، الطبعة الأولى 1994م، ص 121

(4) لمعرفة تفاصيل ذلك وأسبابه أنظر الشوكاني وسيد قطب والأبعاد الحضارية في حياتهما وتفسيرهم للباحث

## زمان التفسير ومكانه:

بدأ سيد يكتب عنوانه الثابت (في ظلال القرآن) بمقالات شهرية في مجلة (المسلمون)، تماماً مثلما بدأ يكتب عن نظرية التصوير الفني في القرآن في مجلة (المقتطف) عام 1939م ليخرجه بعد ذلك في كتاب، حيث نشر الحلقة الأولى من حلقات (في ظلال القرآن) في شهر فبراير عام 1952م، ابتداءً بتفسير سورة الفاتحة، ثم تواصل مع سورة البقرة حتى الآية رقم (103) وفي نهاية الحلقة السابعة أعلن عن توقفه عن الكتابة في تفسير القرآن في حلقات المجلة، عازماً على أن يفسر القرآن في أجزاء تنشر تباعاً كل شهرين وظهر الجزء الأول من الظلال في أكتوبر من العام نفسه، وتواصل في إصدار الأجزاء حتى بلغ الجزء السادس عشر، أصدره في يناير 1954م، أدخل بعد ذلك السجن واستمر حتى شهر مارس، وأصدر وهو في السجن الجزأين السابع عشر والثامن عشر، وخرج من السجن وانشغل بقضايا أخرى ليعاد إلى السجن مرة أخرى إثر "حادثة المنشية" في نوفمبر 1954م التي اتهم فيها الإخوان بمحاولة اغتيال جمال عبد الناصر<sup>(5)</sup>.

عذب في السجن عذاباً شديداً منعه من السير في منهجه في التفسير حتى قدم للمحاكمة، وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً، ونقل إلى سجن (ليمان طره)، وهناك حوّل المحنة إلى منحة، ووهب وقته وتفكيره وروحه وقلبه للقرآن ليكمل تفسيره بإرادة ربانية، رغم القوانين التي تمنع الكتابة لمثل هؤلاء المساجين، بل تحظر عليهم الأقلام والورق<sup>(6)</sup>.

(5) للتوسع أنظر صلاح الخالدي مدخل إلى ظلال القرآن - دار المنارة - ص 42-47

(6) وقصة ذلك كان سيد قد تعاقد مع دار إحياء الكتب العربية على طباعة ونشر الظلال كتفسير للقرآن كله فلما منعت الحكومة من الكتابة، رفعت دار النشر دعوى ضدها وحكمت المحكمة بدفع تعويض للدار قيمته عشرة آلاف جنيه، فاخترت الحكومة أن تسمح لسيد بإكمال الظلال بدل الدفع، واستغلت الحكومة هذا الأسلوب لتثبت لمن يحتج عليها بأن سيداً وزملاءه يمارسون الحرية كاملة، للتوسع أنظر الشوكاني وسيد

## مراحل التفسير:

سلك سيد قطب طريقة جيدة في تفسيره للقرآن الكريم، حيث أعتمد على المرحلية في التأليف، لذلك جاء الظلال غنياً في عرضه، شاملاً لجميع جوانب الحياة، تظهر عليه تلك المراحل<sup>(7)</sup>، من خلال تناول النفيس، وقد سعت إلى عرض هذه المراحل بإيجاز شديد.

## المرحلة الأولى :

مرحلة الصحبة لكتاب الله والتجوال في جنبات حقائقه في شتى مجالات الحياة، قارئاً ما كتبه الأوائل في تلك الجوانب، وهذه المرحلة أخذت منه وقتاً طويلاً، لكنها كانت الأساس في نتاج المراحل الأخرى إن الذي يكتب هذه الكلمات قضى - ولله الحمد والمنة - في الصحبة الواعية لدراسة هذا الكتاب، خمسة وعشرين عاماً يجول في جنبات الحقائق الموضوعية لهذا الكتاب، في شتى حقول المعرفة الإنسانية - ما طرقته معارف البشر وما لم تطرقه - يقرأ في الوقت ذاته ما يحاوله البشر من بعض هذه الجوانب، ويرى ذلك الفيض الغار المنفسح الواسع في هذا القرآن وإلى جانبه تلك البحيرات المنعزلة، وتلك النقر الصغيرة، وتلك المستقعات الآسنة أيضاً في النظرة الكلية في هذا الوجود وطبيعته وحقيقته وجوانبه وأصله، ونشأته .

في النظرة الكلية إلى نظام الحياة الإنسانية، وجوانب النشاط الواقعي فيها، ومجالات الارتباط والاحتكاك، والحاجات المتجددة وتنظيم هذه الحاجات<sup>(8)</sup>.

قطب والأبعاد الحضارية، للمؤلف ص 150.99

(7) المرحلة الثانية وما بعدها تكلم عنها كل من صلاح الخالدي عدنان زرزور وعباس خضر راجع المنهج الحركي في ظلال القرآن د/صلاح الخالدي دار المنارة للنشر والتوزيع الطبعة الأولى ص 199 وما بعدها.

(8) الظلال 1422/3

### المرحلة الثانية:

هي مرحلة الاستعداد الخاص المادي والمعنوي، "البدني والروحي" حيث كان وقبل الشروع في تفسير الآيات يتوضأ ثم يقوم للصلاة ويقرأ فيها الآيات التي ينوي تفسيرها، هذا الأسلوب يحمل عدة دلالات أهمها عظيم صلة سيد بالله تعالى وأدبه مع كتاب الله، واستحضار الجو الروحي الإيماني، لينتج عن ذلك إضفاء الشفافية الوجدانية على كلامه في التفسير

### المرحلة الثالثة:

قراءته للسورة التي ينوي تفسيرها عدة مرات حتى يهتدي إلى موضوعها الرئيسي، وهذا الأسلوب الفريد يعتبر منهجية أعتمد عليها في تفسيره وهي منهجية "الوحدة الموضوعية للقرآن"، أي أنه لم ينظر إليه كأجزاء متفرقة، بل كوحدة موضوعية شاملة، وكل متناسق متناسب.

### المرحلة الرابعة:

وهي مرحلة الصياغة أي مهمة تعبيرية بعد الحياة الشعورية مع نصوص القرآن، فقد كان سيد يعكف على كتابة تفسير السور أو المقاطع بأقل قدر ممكن من الجلسات في صورة موحية مؤثرة

### المرحلة الخامسة:

مرحلة التوثيق العلمي، مرحلة الاستدراك والنظر في المصادر من كتب التفسير والحديث والسير وغيرها، مرحلة الاستشهاد أو الترجيح. هكذا كانت مراحل تفسير سيد تبدأ من مرحلة كونه خاطرة في الشعور إلى مرحلة الصياغة النهائية

## المبحث الثاني:

## السنن الإلهية حقائق وميادين

## المطلب الأول: حقائق يجب التأكيد عليها:

في هذا المطلب نحاول جمع وترتيب جملة حقائق وقواعد في السنن الإلهية ، سلط سيد قطب الأضواء عليها في أماكن متناثرة من الظلال ، وهي على النحو الآتي

## 1. إتباع السنن لتحقيق الخلافة الحضارية \*\* :

الخلافة هي (حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في المصالح الأخروية والدنيوية فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا)<sup>(9)</sup> .

يجمع ابن خلدون <sup>(10)</sup> - رحمه الله - في تعريفه للخلافة بين قدرتها على تحقيق المصالح للإنسان في الدنيا والآخرة أو بالمعنى المشاع عصرياً بين ما هو مادي وقيمي

\* الخلافة لغة مصدر خلف ، يقال خلفه خلافة كان خليفته وبقي بعده ، ويقال تخلف فلان فلاناً إذا تأخر عنه وإذا قام مقامه ، وإذا قام بالأمر عنه إما معه وإما بعده ، والخلافة النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه ، وإما لموته ، وإما لعجزه

\*\* الحضارة لغة الحضر خلاف البدو ، والحاضر خلاف البادي وفي الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - (لا يبغ حاضر لباد) ، والحاضر المقيم في المدن والقرى ويقول أبو الطيب المتنبّي مستحسننا جمال البدويات

ما أوجه الحضر المستحسنات كأوجه البدويات الرعايب

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البدويات حُسن غير مجلوب

انظر لسان العرب لابن منظور ، مكتبة تحقيق التراث ، دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي - بيروت - الطبعة الثالثة 1993م 3/21. انظر: أمراء الشعراء العربي: أنيس المقدسي ، دار العلم للملايين ، الطبعة السابعة عشرة 1989م ، ص 377.

(9) مقدمة ابن خلدون - دار القلم - بيروت - الطبعة السادسة 1986م ، ص 120

(10) هو عبد الرحمن بن خلدون ولد في مدينة تونس غرة رمضان 732هـ / 1332 م من أسرة يرجع نسبها إلى



كما أن مصطلح الحضارة عند المسلمين يعني ذلك أيضاً، وهو الجمع بين متطلبات الإنسان الدنيوية والراقي في ذلك، والقيم والأخلاق التي تحرس وتحصن بناء الحضارة، فالحضارة عبارة عن "ناتج غايات وتصورات، ونظام وسلوك، وقيم ومثل، وأسس ومبادئ، وصناعة وفن، و منظومات، وطبيعة حياة، تصلح لقيادة الإنسانية، يدعمها ويحافظ على بقائها عمل متصل، وفعالية عالية مرتفعة."<sup>(11)</sup>

لذا نجد سيد قطب في مقدمة ظلاله يعيب جداً على المضللين، أو من ساهم بأعداء البشرية، الذين يضعون المنهج القيمي التشريعي في كفه والإبداع الإنساني في الحياة في كفة أخرى، ويرفضون الجمع بينهما لما فيه مصلحة الإنسانية. إن المنهج الإلهي ليس عدواً للإبداع الإنساني<sup>(12)</sup> وينادي بالجمع بين السنن لتحقيق الخلافة ذلك كي ينهض الإنسان بمقام الخلافة في الأرض، هذا المقام الذي منحه الله له، وأقدره عليه، ووهبه من الطاقات المكنونة ما يكفي الواجب المفروض عليه فيه، وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه، ونسق بين تكوينه وتكوين هذا الكون ليملك الحياة والعمل والإبداع، على أن يكون الإبداع نفسه عبادة لله، ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام، والتقييد بشرطه في عقد الخلافة."<sup>(13)</sup>

ثم نجده يشنع على من ينقصهم الوعي الشامل والإدراك العميق للقوانين والسنن الطبيعية أو المادية التي قد يتوصل إليها الإنسان، وللقيم الإيمانية، ظناً

أصل يمني، تنقل بين بلاد المغرب والأندلس واستقر به المقام في الإسكندرية توفى في 5 رمضان 807هـ 1406م انظر التأصيل الإسلامي لنظرية ابن خلدون للدكتور عبد الحكيم عويس، من سلسلة كتاب الأمة إبريل 1996م

(11) الشوكاني وسيد قطب والأبعاد الحضارية في حياتهما وتفسيرهما، ص 18 مرجع سابق

(12) الظلال 16/1

(13) المرجع السابق 16/1

منهم أن القوانين الطبيعية تسير غير متأثرة بالقيم الإيمانية، حيث يقول " هذا وهم، إن الفصل بين نوعين من السنن الإلهية هما في حقيقتهما غير منفصلين، فهذه القيم الإيمانية هي بعض سنن الله في الكون كالقوانين الطبيعية سواء بسواء" (14).

ويؤكد على أهمية إنفاذ سنن الله المتمثلة في الإيمان به وعبادته " إن الإيمان بالله، وعبادته على استقامة، وإقرار شريعته في الأرض كلها إنفاذ لسنن الله، وهي سنن ذات فاعلية إيجابية، نابعة من ذات المنبع الذي تنبثق منه سائر السنن الكونية التي نرى آثارها الواقعية بالحس والاختيار" (15).

وحتى لا ينبهر المسلمون بالحضارة المادية الزائفة المعاصرة التي أخذت فقط السنن المادية تاركة السنن الإيمانية، يقول سيد : "ولقد تأخذنا في بعض الأحيان مظاهر خادعة لافتراق السنن الكونية حين نرى أن إتباع القوانين الطبيعية يؤدي إلى النجاح مع مخالفة القيم الإيمانية، هذا الافتراق قد لا تظهر نتائجه في أول الطريق، ولكنها تظهر حتماً في نهايته" (16).

إذاً فهي شريعة الله التي هي ثمرة من ثمار الإيمان، وهي متكاملة مع التصور الإسلامي الكامل وهكذا يبدو التكامل والتناسق بين سنن الله كلها، سواء ما نسميه القوانين الطبيعية وما نسميه القيم الإيمانية، فكلها أطراف من سنة الله الشاملة لهذا الوجود" (17).

وعلى هذا الأساس فالقضية ليست ناتجة صدفة أو ضربة حظ، والحياة ليست مغامرة، وبناء الحضارات لا يقوم على المجازفات، فالقضية هي ثبات سنن من أخذ بها فقد أخذ بحظ واقّر والأمور لا تمضي في الناس جزافاً، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً، فهناك نواميس ثابتة تتحقق، لا تتبدل ولا تتحول،

(14)، (15)، (16) المرجع نفسه ص 17

(17) الظلال 17/1

والقرآن يقرر هذه الحقيقة ويعلمها للناس، كي لا ينظروا إلى الأحداث فرادى، ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصلية

فيوجههم دائماً إلى ثبات السنن واطراد النواميس<sup>(18)</sup>

لكن ماذا لو أن صناع الحضارات وبانيها أصروا على قيام هذه الحضارات أو تلك على الأخذ بهذه السنن المادية فقط دون الاعتماد على مجموع السنن الإيمانية والمادية؟ لاشك أنها حضارة آيلة للسقوط. وهذا ما وقع للمجتمع الإسلامي نفسه، لقد بدأ خط صعوده من نقطة التقاء القوانين الطبيعية في حياته مع القيم الإيمانية، وبدأ خط هبوطه من نقطة افتراقهما، وظل يهبط ويهبط كلما انفرجت زاوية الافتراق، حتى وصل إلى الحضيض عندما أهمل السنن الطبيعية والقيم الإيمانية جميعاً<sup>(19)</sup>.

وماذا لو أن إهمالاً حدث للقوانين الطبيعية مع ارتفاع كبير للالتزام بالقيم الإيمانية؟ فما النتيجة المتوقعة لهؤلاء أرباب المنسوب الإيماني المرتفع؟ إنها نفس النتيجة - الخسارة - حتى وإن كانوا مسلمين، فالنتيجة هي الخسارة حتى وإن كانوا صحابة رسول الله طالما أنهم لم يجمعوا بين سنن الله الإيمانية والمادية، والدليل على ذلك ما حدث في معركة أحد للرماة الذين خالفوا أمر الرسول ﷺ، ثم يمضي السياق خطوة في استعراض أحداث المعركة، والتعقيب عليها، فيعرض دهشتهم لما صارت إليه الأمور، واستغرابهم لوقوع ما وقع بهم وهم المسلمون، مما يشن بسذاجة تصورهم للأمر يومذاك قبل أن تطحنهم التجربة، وتصوغهم صياغة واقعية تتعامل مع واقع الأمر، وطبيعة السنن، وجدية هذا الواقع الذي لا يُحابي أحداً لا يأخذ بالسنن<sup>(20)</sup>.

(18) الظلال 2949/5 - 2950

(19) المرجع السابق 17/1

(20) المرجع السابق 513/1

وأختم هذه الحقيقة بمعادلة ألخص فيها ما سبق فأقول  
 قيم إيمانية    قوانين طبيعية (مادية)    ← إنسان    استخلاف حضاري  
 2. سنن الله الثابتة لا تتعارض مع مشيئته المطلقة :

هذه حقيقة أخرى نؤكد عليها في سياق دراستنا هذه، بل ونجعلها قاعدة مثبته لئلا يساورنا أدنى شك في تعارض أو اختلاف، كي لا نفسر سنن حياتنا تفسيراً جافاً دون أن نضع نصب أعيننا مشيئة الله في تسيير هذا الكون وهذه الحياة وهذا الإنسان

وقد اهتم سيد قطب بهذا الموضوع، فنراه يؤكد على هذا الربط بين السنن والمشيئة، فنجد بعد أن يتحدث عن سنن الله الجارية في أمر القرى يربط ذلك بالمشيئة ووفقاً لسنن الله الجارية وفق مشيئته الطليقة كان من أمر تلك القرى ما كان إلى أن يقول "ولكن إرادة الإنسان وحركته إنما يقعان في إطار من مشيئة الله الطليقة وقدره الفاعل" (21).

إنه التميز والتوازن، نعم تميز التصور الإسلامي بهذا الجمع بين الأمرين معاً إن التصور الإسلامي يبلغ من الشمول والتوازن في هذه القضية مالا يبلغه أي تصور آخر في تاريخ البشرية هناك ناموس ثابت وسنن حتمية وهناك وراء الناموس الثابت والسنن الحتمية إرادة فاعلة ومشيئة طليقة، وهناك وراء الناموس والسنن والإرادة والمشيئة حكمة مدبرة يجري كل شيء في نطاقها (22).

فالإنسان الذي تجري عليه السنن الحتمية بحركاته وإرادته المختارة وبأفعاله التي ينشئها حسب تفكيره وتخطيطه، فيكون ذلك كله واقعاً وفق قدر الله ومشيئته، فهي - السنن - لا تتعارض مع المشيئة ولا تتنافر معها

(21) الظلال 3/ 1336

(22) المرجع السابق 514/1

" واللّٰهُ سبحانه حين وهب الإنسان كينونته وفكره وإرادته وتقديره وتدبيره وفاعليته في الأرض، لم يجعل شيئاً من هذا كله متعارضاً مع سنته سبحانه ولا مناهضاً لمشيئته"<sup>(23)</sup>.

ونتيجة لهذا التوازن والتميز للتصور الإسلامي جاءت هذه الأمة المحمدية لتكون من أهم صفاتها الوسطية، حيث اتسع تصورهما ووقع في حسها التوازن بين حتمية السنن وطلاقة المشيئة، وهو أمر لم تعرفه العرب قبل مجيء الإسلام حيث النظرة الضيقة، والتفكير المحدود، والعصبية القبلية، والنزعة الذاتية الأنانية

" إن النظام القبلي الذي كانوا يعيشون في ظله ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة ومجريات حياتهم، فضلاً عن الربط بين الأحداث العالمية والسنن الكونية التي تجري وفقها الحياة جميعاً، وهي نقلة بعيدة لم تتبع من البيئته، ولم تنشأ من مقتضيات الحياة في ذلك الزمان، وإنما حملتها إليهم هذه العقيدة، بل حملتهم إليها، وارتقت بهم إلى مستواها في ربع قرن من الزمان، على حين أن غيرهم من معاصرين لم يرتقوا إلى هذا الأفق من التفكير العالي إلا بعد قرون وقرون، ولم يهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس الكونية إلا بعد أجيال وأجيال، فلما اهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس نسوا أن معها كذلك طلاقه المشيئة الإلهية، وأنه إلى الله تصير الأمور

فأما هذه الأمة المختارة فقد استيقنت هذا كله، واتسع له تصورهما، ووقع في حسها التوازن بين ثبات السنة وطلاقه المشيئة، فاستقامت حياتها على التعامل مع سنن الله الثابتة، والاطمئنان بعد هذا إلى مشيئته الطليقة<sup>(24)</sup>

(23) المرجع السابق 514/1

(24) الظلال 1/ 479

وأختم حديثي حول هذه القاعدة بمحاولة التعرف على الحكمة الإلهية التي ربما أرادها الله تعالى من أن يجمع الإنسان بين إبداعاته في إتباعه للسنن في هذه الحياة وربط ذلك بمشيئة الله تعالى " ولقد شاء الله أن تتنوع استعدادات هذا المخلوق واتجاهاته وأن يوهب القدرة على حرية الاتجاه، وأن يختار هو طريقه، ويحمل تبعه الاختيار، ويجازي على اختياره للهدى أو للضلال، هكذا اقتضت سنة الله وجرت مشيئته، فالذي يختار الهدى كالذي يختار الضلال سواء في أنه تصرف حسب سنة الله في خلقه، ووفق مشيئته في أن يكون لهذا المخلوق أن يختار، وأن يلقي جزاء منهجه الذي اختار (25).

### 3. التلازم بين سنن الله وقدره :

ترتبط هذه القاعدة بسابقتها، فهي امتداد لها، وقد أكد عليها سيد قطب لأهميتها في نقاء التصور الإسلامي لدى المسلم، ومعرفة حقيقته وحقيقة قدر الله سبحانه وتعالى وهذه الحقيقة الكبيرة تمثل جانباً من جوانب التصور الإسلامي لحقيقة الإنسان، وعلاقة قدر الله به في هذا الوجود، وعلاقته هو بهذا الكون وما يجري فيه، ومن هذا الجانب يتبين تقدير هذا الكائن في ميزان الله، وتكريمه بهذا التقدير (26).

وهو بهذا التكريم والتميز يستطيع أن يفعل ذاته مستفيداً من سنن الله في الحياة، فيبدو إيجابياً في حركته وعمله ونيته وسلوكه، لنفسه وأتمه طارداً الحتمية السلبية الذليلة الخائرة التي تفرضها عليه المشاريع المادية، كحتمية الاقتصاد أو التاريخ، ذلك لأنه يستمد هذه الإيجابية من عدل الله المطلق الذي سيمنحه التفوق الدائم، "كذلك تصور هذه الحقيقة ذلك التلازم بين العمل

(25) المرجع السابق 19332/4

(26) المرجع السابق 3/ 1536

والجزاء في حياة هذا الكائن ونشاطه، وتصور عدل الله المطلق في جعل هذا التلازم سنة من سنن يجري بها قدره، ولا يظلم فيها عبداً من عبيده (27).

#### 4- الارتباط بين السنن في حياة الناس والسنن الكونية:

الارتباط بين سنن الله في الكون وحياة الناس ناتج لارتباط العلاقة وعمقها بين الإنسان والكون، وهذا كله من تدابير خلق الله ولطف حكمه، ويبهرننا سيد بهذا الاستنتاج العظيم لهذا الارتباط وتلك الصلة بين السنن الكونية والبشرية في معرض تفسيره لآيات سورة الإسراء (28) حيث يقول: "فالناموس الكوني الذي يحكم الليل والنهار، يرتبط به سعي الناس للكسب، وعلم السنن والحساب، ويرتبط به كسب الإنسان من خير وشر وجزاؤه على الخير والشر، وترتبط به عواقب الهدى والضلال، وفردية التبعة فلا تزر وازرة وزر أخرى، ويرتبط به وعد الله ألا يعذب حتى يبعث رسولاً، وترتبط به سنة الله في إهلاك القرى بعد أن يفسق فيها مترفوها، وترتبط به مصائر الذين يطلبون العاجلة والذين يطلبون الآخرة، وعطاء الله لهؤلاء وهؤلاء في الدنيا والآخرة كلها تمضي وفق ناموس ثابت وسنن لا تتبدل، ونظام لا يتحول، فليس شيء من هذا كله جزافاً" (29).

لم يكن للبشر حق الاختيار في هذا الارتباط بين النواميس والسنن. كلا إنما هو اختيار الله، وإنما هي رحمة الله، إنما هو علم الله، وإنما هي إرادة الله، ثم هي الحكمة الإلهية في تسيير هذه السنن وتلك، "فالليل سكونية وقرار، والنهار نشاط وعمل، والمتجه فيه إلى فضل الله، فما يعطي الناس شيئاً

(27) الظلال 1536/3

(28) الآيات (21-12)

(29) الظلال 2216/4

إلا من فضله (ولعلكم تشكرون) <sup>(30)</sup> ، ما يسره الله لكم من نعمة ومن رحمة، وما دبره لكم واختاره من توالي الليالي والنهار، ومن كل سنن الحياة التي لم تختاروها، ولكن اختارها الله عن رحمة وعن علم وعن حكمة تغفلون عنها لطول الإلف والتكرار <sup>(31)</sup> .

5. السنن للأحياء جميعاً :

وهو عدل الله المطلق بين سائر الأحياء، إذ أن الجميع يسرون وفق سننه وأقداره ومشيتته ينتقل السياق إلى حكاية ما يطلبه المشركون <sup>(32)</sup> من إنزال خارقة، وإلى بيان ما في هذا الطلب من الجهالة بسنن الله، ومن سوء إدراك لرحمته بهم ألا يستجيب لهذا الاقتراح الذي في أعقابه التدمير لهم لو أجيبوا إليه، ويعرض جانباً من دقة التدبير الإلهي وإحاطته بالأحياء جميعاً يوحى بحكمة السنة الشاملة للأحياء جميعاً <sup>(33)</sup> .

كما أن من عدل الله المطلق أن ساوى بين المسلم والكافر في التعرض لسننه سبحانه، فقد يفيد الكافر من هذه السنن إذا تعرض لها وأهملها المؤمن، "هذا الذي تستكرون أن يقع لكم وتقولون كيف هذا؟ هو من عند أنفسكم" <sup>(34)</sup> بانطباق سنة الله عليكم حين عرضتم أنفسكم لها، فالإنسان حين يعرض نفسه لسنة الله لا بد أن تنطبق عليه مسلماً كان أو مشركاً، ولا تتخرق محابة له، فمن كمال إسلامه أن يوافق نفسه على مقتضى سنة الله ابتداءً <sup>(35)</sup> .

(30) من قوله سبحانه وتعالى (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) (القصص: 73)

(31) الظلال/ 5/ 2708

(32) إشارة إلى قوله تعالى (وقالوا لولا نزل علينا آية من ربنا) (الأنعام: 37)

(33) الظلال/ 2/ 1079

(34) تفسيراً لقوله تعالى (قل هو من عند أنفسكم) (آل عمران: 165)

(35) الظلال/ 1/ 514



## ميادين السنة الإلهية:

الميدان الأول : سنن الله مع المؤمنين :

### 1- استعلاء الإيمان:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(36)</sup> ، ويقول سيد قطب في تفسيره للآية لا تَهِنُوا - من الوهن والضعف - وَلَا تَحْزِنُوا - لما أصابكم ولما فاتكم - وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ عقيدتكم أعلى، فأنتم تسجدون لله وحده، وهم يسجدون لشيء من خلقه أو لبعض من خلقه، ومنهجكم أعلى، فأنتم تسيرون على منهج من صنع الله، وهم يسيرون على منهج من صنع خلق الله، ودوركم أعلى، فأنتم الأوصياء على هذه البشرية كلها، الهداة لهذه البشرية كلها، وهم شاردون عن النهج، ضالون عن الطريق، ومكانكم في الأرض أعلى، فلکم وراثۃ الأرض التي وعدكم الله بها، وهم إلى الفناء والنسيان صائرون، فإن كنتم مؤمنين حقاً فأنتم الأعلون، وإن كنتم مؤمنين حقاً فلا تهنوا ولا تحزنوا، فإنما هي سنة الله أن تصابوا وتصيبوا، على أن تكون لكم العقبى"<sup>(37)</sup>.

فاذاً هي سنة الله مع هذا الصنف من البشر، وهم الذين استعلى إيمانهم فاستعلوا على غيرهم، ذلك لأن الإيمان بالله يمنح حامله قوة وتمكيناً يُعينهما على عمارة الأرض واستخلاصها

" والإيمان بالله قوة دافعة دافقة، تجمع جوانب الكينونة البشرية كلها، وتوجه بها إلى وجهة واحدة وتطلقها، تستمد من قوة الله، وتعمل لتحقيق مشيئته

(36) آل عمران 139

(37) الظلال 480/1

في خلافة الأرض وعمارتها، وفي دفع الفساد والفتنة عنها، وفي ترقية الحياة ونمائها، وهذه كلها من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية<sup>(38)</sup>.

فهي ثمرات ونتائج عظيمة لهؤلاء، فلاح في الدنيا والآخرة، تحرر من العبودية، خلافة راشدة، تواضع ورحمة، سيرة صالحة، خير عميم، بركة من كل جانب، لطف من الله مستور، وفوق هذا وذاك مدد إلهي غير منقطع يقول سيد عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(39)</sup>.

" والإيمان بالله تحرر من العبودية للهوى، ومن العبودية للعبيد، وما من شك أن الإنسان المتحرر بالعبودية لله أقدر على الخلافة في الأرض خلافة راشدة، صاعدة عن العبيد للهوى ولبعضهم بعضاً

وتتقوى الله يقظة واعية تصون من الاندفاع والتهور والشطط والغرور .  
وحين تسير الحياة متناسقة بين الدوافع والكوابح، عاملة في الأرض متطلعة إلى السماء، متحررة من الهوى والطغیان البشري، عابدة خاشعة لله تسير سيرة صالحة منتجة تستحق مدد الله بعد رضاه، فلا جرم تحفها البركة، ويعمها الخير، ويظلها الفلاح، والمسألة - من هذا الجانب - مسألة واقع منظور إلى جانب لطف الله المستور، واقع له علله وأسبابه الظاهرة إلى جانب قدر الله الغيبي الموعود<sup>(40)</sup>.

فهي سنة الله الجارية في الذين آمنوا شرط أن يتحقق فيهم الإيمان المحروس بالتقوى فذلك هو الطرف الآخر لسنة الله الجارية، فلو أن أهل القرى

(38) الظلال 1338/3

(39) الأعراف 96

(40) الظلال 1339/3

آمنوا بدل التكذيب، واتقوا بدل الاستهتار، لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض، هكذا بركات من السماء والأرض مفتوحة بلا حساب<sup>(41)</sup>.

لكن قد يحدث أحياناً خلل بسيط في أثناء سير هذه الفئة المؤمنة - التي تحمل إيماناً كبيراً وتقوى جامعة شاملة فيصيبهم الله حسب سننه ليصحح لهم المسار ويزيدهم إيماناً على إيمانهم

" وفي خلال استعراض تلك السنة تحفل الآيات بالتشجيع على الاحتمال، والمواساة في الشدة والتأسية على القرع الذي لم يصيبهم وحدهم، إنما أصاب أعداءهم كذلك، وهم أعلى من أعدائهم عقيدة وهدفاً، وأهدى منهم طريقاً ومنهجاً، والعاقبة بعد لهم، والدائرة على الكافرين<sup>(42)</sup>."

**2. تمحيص المؤمنين :**

الفتنة والتمحيص للمؤمنين من سنن الله  
ذلك لأن الإيمان أمر عظيم، والأمر العظيم لا يتحقق إلا بجهد وجهاد، ثم هو يحتاج إلى تنقية من الشوائب، وذلك لا يتحقق إلا بالفتن  
" إن الإيمان ليس كلمة تقال، إنما هو حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء، وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال، فلا يكفي أن يقول الناس آمنا، وهم لا يتركون لهذه الدعوى حتى يتعرضوا للفتنة، فيثبتوا عليها ويخرجوا منها، صافية عناصرهم خالصة قلوبهم، كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به وهذا هو أصل الكلمة اللغوي، وله دلالة وظله وإحاؤه، وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب، هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت، وسنة جارية في ميزان الله سبحانه<sup>(43)</sup>"

(41) الظلال 1338/3

(42) الظلال 478/1

(43) الظلال 2720/5

وفي عرضه - رحمه الله - لقوله تعالى ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (44)

يقول سيد " والتمحيص درجة بعد الفرز والتمييز، التمهيص عملية تتم في داخل النفس، وفي مكنون الضمير، إنها عملية كشف لمكنونات الشخصية وتبسيط الضوء على هذه المكنونات، تمهيداً لإخراج الدخّل والدغل والأوشاب، وتركها نقية واضحة مستقرة على الحق بلا غبش ولا ضباب. تحقيقاً لسنته في دفع الباطل بالحق متى استعلى الحق، وخلص من الشوائب بالتمحيص " (45)

سنة التمهيص بالخير والشر

اقتضت سنة الله تعالى أن يمحص ويبتلي المؤمن بالخير أو بالشر، وفتنة الخير أعلى مرتبة من فتنة الشر بل وأشد، كما اقتضت سنة الله أن يبتلي الطائعين والعصاة سواء، فالؤمن من يُبتلى بالشدة فيصبر ويبتلى بالرخاء فيشكر، ويكون أمره كله خيراً

يقول سيد وهو يعرض لهذا النوع من السنن عند تفسيره لقوله تعالى (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة): (46) " فإذا الرخاء مكان الشدة، واليسر مكان العسر، والنعمة مكان الشظف، والعافية مكان الضر، والذرية مكان العقر، والكثرة مكان القلة، والأمن مكان الخوف، وهو متاع ورخاء، وهناءة ونعماء، وكثرة وامتلاء، وإنما هو في الحقيقة اختبار وابتلاء " (47)

لكن ما نتيجة هذا الاختبار والابتلاء بالخير أو بالشر؟ والابتلاء بالشدة قد يصبر عليها الكثيرون، ويحتمل مشقاتها الكثيرون، فالشدة تستثير عناصر المقاومة، وقد تذكر صاحبها بالله - إن كان فيه خير - فيتجه إليه

(44) آل عمران 141

(45) الظلال 1/ 482 483

(46) من سورة الأعراف 95

(47) الظلال: 1337/3

ويتضرع بين يديه، ويجد في ظله طمأنينة، وفي رحابه فسحة، وفي فَرْجِه أملاً، وفي وعده بشرى، فأما الابتلاء بالرخاء فالذين يصبرون عليه قليلون، فالرخاء يُنسي، والمتاع يُلهي، والثراء يُطغي، فلا يصبر عليه إلا الأقلون من عباد الله" (48) ويصل سيد بعد هذا التحليل الرائع ليقدر حقيقة ما وراء ذلك "هكذا تمضي سنة الله أبداً، وفق مشيئته في عبادته، وهكذا يتحرك التاريخ الإنساني بإرادة الإنسان وعمله في إطار سنة الله ومشيئته، وها هو ذا القرآن الكريم يكشف للناس عن السنة، ويحذرهم الفتنة، فتنة الاختبار والابتلاء بالضراء والسراء" (49).

ويتوجب علينا هنا أن نوضح حال الأمم اليوم، وما موقعنا كمسلمين بينها، وهل نحن في عصر الابتلاء بالشدة أم بالرخاء مقارنة بغيرنا؟ ثم لماذا هم - غرباً وشرقاً - أكثر نعماء منّا؟ "ولقد ينظر بعض الناس فيرى أمماً يقولون أنهم مسلمون مضيقاً عليهم في الرزق، لا يجدون إلا الجذب والمحق ويرون أمماً لا يؤمنون ولا يتقون مفتوحاً عليهم في الرزق والقوة والنفوذ، فيتساءل وأين إذن هي السنة التي لا تختلف" (50)؟ ويجب سيد على نفسه "فأما أولئك المفتوح عليهم في الرزق فهذه هي السنة ﴿ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا﴾" (51) فهو الابتلاء بالنعمة الذي مر ذكره، وهو أخطر من الابتلاء بالشدة

وفرق بينه وبين البركات التي يعدها الله لمن يؤمنون ويتقون، فالبركة قد تكون في القليل إذا أُحسن الانتفاع به، وكان معه الإيمان والصلاح والأمن والرضى، وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش في شقوة، مهددة في أمنها،

(48) المرجع نفسه 1337/3

(49) المرجع نفسه 3/ 1338

(50) الظلال 1339/3

(51) الأعراف 95

مقطعة الأواصر بينها، يسود الناس فيها القلق وينتظرها الانحلال، فهي قوة بلا آمن، وهو متاع بلا رضى، وهو وفرة بلا صلاح، وهو حاضر زاهٍ يترقبه مستقبل نكد، وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال<sup>(52)</sup>.

### 3. سنن الله في الفئة المؤمنة وعدوها:

إن أي فئة مؤمنة تحمل أعباء هذا الدين، وتعمل على تطبيقه في واقع الحياة والدعوة إليه بين الناس، يظهر من الناس من يقف في طريقها عن جهل أو عن علم أو عن عناد

فما هي سنن الله مع الفئة المؤمنة ومع عدوها في منظور سيد قطب؟  
نجدّه يوضح ذلك بقوله "قاعدة وسنة، لا فلتة ولا مصادفة قاعدة وسنة أنه حيثما انطلقت العصبة المسلمة في الأرض لتقرير ألوهية الله وحده، وإقامة منهج الله وحده، ثم وقف منها عدو لها موقف المشاقة لله ورسوله كان التثبيت والنصر للعصبة المسلمة، وكان الرعب والهزيمة للذين يشاقون الله ورسوله ما استقامت العصبة المسلمة على الطريق، واطمأنت إلى ربها، وتوكلت عليه وحده"<sup>(53)</sup>، فالفئة المؤمنة حتى تستفيد من هذه السنة يشترط فيها الاستقامة والصلاح والاطمئنان إلى ربها والإخلاص له، وفي المقابل فإن سنة الله جارية في النكال والعذاب بالمستهزئين المكذابين المفسدين

" فلا يحسبن مفسد أنه مفلت ولا سابق، ومن يحسب هذا فقد ساء حكمه، وفسد تقديره، واختل تصوره، فإن الله الذي جعل الابتلاء سنة ليمتحن إيمان المؤمن ويميز بين الصادقين والكاذبين، هو الذي جعل أخذ المسيئين سنة لا تتبدل ولا تختلف ولا تحيد

(52) الظلال 1393/3

(53) المرجع السابق 1486/3

فإذا كانت الفتنة سنة جارية لامتحان القلوب وتمحيص الصفوف،

فخيبة المسيئين وأخذ المفسدين سنة جارية لا بد أن تجيء<sup>(54)</sup>.

غير أنه ومن الشروط المطلوبة لنصر الفئة المؤمنة أن يكون هدفها

الأرضي إقامة الحق، وهذا يتطلب منهم عملاً وجهداً وتمثلاً لهذا الحق غير أنه

ينبغي مع ذلك التنبيه إلى أن سنة الله في تدمير الباطل أن يقوم في الأرض حق

يتمثل في أمة، فلا يقعد أهل الحق كسالى يترقبون أن تجري سنة الله بلا عملٍ منهم ولا كد<sup>(55)</sup>.

4. من سنن الله النصر لأوليائه المؤمنين :

نصر الله وتأييده سنة ماضية لا تتوقف

يقول سيد قطب - رحمه الله - "وما يزال القرآن يعمل بحقيقته

الكبيرة، وبما يتضمنه من مثل هذه الحقيقة، إن وعد الله بهزيمة الذين

يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج الله قائم في كل لحظة، ووعد الله

بنصر الفئة المؤمنة - ولو قلّ عددها - قائم كذلك في كل لحظة، وتوقف النصر

على تأييد الله الذي يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تتسخ، وسنة ماضية لم

تتوقف<sup>(56)</sup>.

فليطمئن إذا المؤمنون الصادقون بنصر الله لهم وإن كانوا قلة، نعم إنها

سنة ثابتة ولا تبدل لسنة الله، وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسنته

الكونية الثابتة التي لا تتبدل - فأى سكينه ؟ وأي ثقة ؟ وأي تثبيت يجده

المؤمنون في أنفسهم، وهم يسمعون من الله أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من

سنن الله الجارية، في هذا الوجود، وهي سنة دائمة لا تتبدل<sup>(57)</sup>.

(54) المرجع السابق 2721/5

(55) المرجع السابق 2/ 1091

(56) الظلال 372/1

(57) الظلال 3326/6

لكن كيف تتحقق هذه السنة - سنة النصر للمؤمنين - ؟ وعلى أي شكل يكون النصر؟ وعلى من سيتحقق هذا النصر؟ كل ذلك مرده إلى المشيئة الإلهية والتدبير الإلهي - نحن فقط علينا أن نثق في وعد الله، "هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة، كما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان، وكما تنبتق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء، ولكنها مرهونة بتقدير الله، يحققها حين يشاء، ولقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة، ولكنها لا تخلف أبداً ولا تتخلف وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر، لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة، ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين" (58).

الإعداد الإلهي للأمة المسلمة للنصر والقيادة:

يقول سيد - رحمه الله - متحدثاً عن قدر الله في إعداد الجماعة المسلمة للقيادة الذي يتم بشتى الأسباب والوسائل والذي يمضي أحياناً عن طريق النصر الحاسم للجماعة المسلمة، فتستبشر، وترتفع ثقتها بنفسها - في ظل العون الإلهي - وتجرب لذة النصر، وتصبر على نشوته، وتجرب مقدرتها على مغالبة البطر والزهو والخيلاء، وعلى التزام التواضع والشكر لله ويمضي أحياناً عن طريق الهزيمة والكرب والشدة - فتلجأ إلى الله، وتعرف حقيقة قوتها الذاتية، وضعفها حين تنحرف أدنى انحراف عن منهج الله، وتجرب مرارة الهزيمة، وتستعلي مع ذلك على الباطل، بما عندها من الحق المجرد، وتعرف مواضع نقصها وضعفها، ومداخل شهواتها، ومزالق أقدامها،



فتحاول أن تصلح من هذا كله في الجولة القادمة، وتخرج من النصر ومن الهزيمة بالزاد والرصيد، ويمضي قدر الله وفق سنته لا يتخلف ولا يحدد<sup>(59)</sup>. وكان للسابقين من هذه الأمة بقيادة قائدها الأول نبينا محمد ﷺ نوع من هذا الإعداد، التربية بالهزيمة، ذلك لفقدانهم جزءاً من سنن وشروط النصر، فكان الألم والقرح الذي هيأهم بعد ذلك لمراعاة سنن النصر قبل الدخول في أي معركة، وهذا الذي وقع في غزوة أحد مثل لهذا الذي نقوله عن التصور الإسلامي الشامل الكامل، فقد عرّف الله المسلمين سنته وشروطه في النصر والهزيمة فخالفوا هم عن سنته وشروطه، فتعرضوا للألم والقرح الذي تعرضوا له . وهذا بدوره خير ينتهي إليه أمر المسلمين - من وراء الألم والضرر - وقد نالوه وفق سنة الله كذلك - فمن سنته أن المسلمين الذين يسلمون بمنهج الله ويستسلمون له في عمومهم يعينهم الله ويرعاهم، ويجعل من أخطائهم وسيلة لخيرهم النهائي<sup>(60)</sup>.

وأختم الحديث في هذا الموضوع بخلاصة لسيد، قعد فيها لسنة النصر الإلهي لمن يستحقونه " ثم تخلص لنا هذه القاعدة التي لا تتعلق بزمان ولا مكان، فنطمئن إليها بوصفها سنة من سنن الله التي لا تتخلف وإن خسرت العصابة المؤمنة بعض المعارك والمواقف - فالسنة التي لا تنقض هي أن حزب الله هم الغالبون، ووعد الله القاطع أصدق من ظواهر الأمور في بعض مراحل الطريق، وأن الولاء لله ورسوله والذين آمنوا هو الطريق المؤدي لتحقيق وعد الله في نهاية الطريق<sup>(61)</sup> .

(59) الظلال 1/ 484

(60) المرجع السابق 1/ 515

(61) المرجع السابق 2/ 922

## ثانياً : سنن الله في الدعوات:

الشدائد والبلاء من سنن الله في الدعوات  
يقول سيد - رحمه الله - " إنها سنة العقائد والدعوات ، لا بد من بلاء ، ولا بد من أذى في الأموال والأنفس ، ولا بد من صبر ومقاومة واعتزاًم <sup>(62)</sup> .  
وأمام هذه الشدائد لا بد من بذل الدعاة لكل طاقاتهم تلك سنة الله في الدعوات ، لا بد من الشدائد ، ولا بد من الكروب ، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة " <sup>(63)</sup> ، لكن لماذا هذه الشدائد ؟ ولماذا هذه الكروب ؟ يقول سيد - رحمه الله " وذلك لكي لا يكون النصر رخيصاً فتكون الدعوات هزلاً ، فلو كان النصر رخيصاً لقام في كل يوم دعي بدعوة لا تكلفه شيئاً ، أو تكلفه القليل ، ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثاً ولا لعباً ، فإنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج ، ينبغي صيانتها وحراستها من الأذعياء " <sup>(64)</sup> .

### الصبر على الدعوات :

إذا كانت المشيئة الإلهية اقتضت سنة الشدائد والأذى تجاه أرباب الدعوات ، فما هي مهام ومواصفات من يشق هذا الطريق ، ويختار أن ينسب نفسه من أصحاب الدعوة " إنها سنة الدعوات ، وما يصبر على ما فيها من مشقة ، ويحافظ في ثايا الصراع المير على تقوى الله ، فلا يشط فيعتدي وهو يرد الاعتداء ، ولا ييأس من رحمة الله ويقطع أمله في نصره وهو يعاني الشدائد ، ما يصبر على ذلك كله إلا أولو العزم الأقوياء " <sup>(65)</sup> .

(62) الظلال 539/1

(63) المرجع السابق 2036/4

(64) المرجع السابق 2036/4

(65) المرجع السابق 540/1

كيف وقد كان رسول الله ﷺ (والأنبياء والرسل من قبله) يعانون من الأذى والصد لدعوته الشيء الكثير، ولكن مع ذلك كله كان يصبر ويحتسب، وغايته لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يقول لا إله على الله، وعزائهم اللهم إهد قومي فإنهم لا يعلمون

" ويستطرد (القرآن الكريم) من تطيب خاطر الرسول ﷺ وبيان الأسباب الحقيقية لموقف المكذبين منه ومن دعوته، ومن آيات الله الناطقة بصدقه وصدق ما جاء به، يستطرد من هذا إلى تذكيره بما وقع لإخوانه الرسل قبله، ثم ما كان منهم من الصبر والمضي في الطريق، حتى جاءهم نصر الله، ليقرر أن هذه هي سنة الدعوات التي لا تتبدل"<sup>(66)</sup>.

فحياته ﷺ منهجٌ للدعاة من بعده الذين يتحملون متاعب الطريق وعقباته إنها تعلمهم أن سنة الله في الدعوات واحدة"<sup>(67)</sup>.

والصبر على الدعوات لا يعني صبر الداعي على المدعو فقط، ولكنه يشمل الصبر على النتائج أيضاً أياً كانت إيجابية أم سلبية، وليس عليه من الأمر شيء في نهاية المطاف، لأن الله هو الذي تكفل بتحديد النتائج ( ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين)<sup>(68)</sup> تلك سنتنا يا محمد إن هدام لا يتوقف على أن تأتيهم بآية، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى "<sup>(69)</sup>.

(66) الظلال 1077/2

(67) المرجع السابق 1077/2

(68) الأنعام 34

(69) المرجع السابق 1078/2

## الميدان الثالث : سنن الله مع الكافرين :

كانت نتيجة معركة بدر أول إنذار يعلنه الله على الكفار أجمعين،

يعلمهم فيه بسننه التي لا تتخلف تجاههم

" بعد هذا البيان يتجه إلى تقرير مصير الذين كفروا، وسنة الله التي لا

تتخلف في أخذهم بذنوبهم، وإلى تهديد الذين يكفرون من أهل الكتاب،

ويقفون لهذا الدين، ويلقن الرسول ﷺ أن ينذرهم، ويذكرهم ما رأوه بأعينهم في

غزوة بدر من نصر القلة المؤمنة على حشود الكافرين كذلك يذكرهم

(اليهود) مصارع قريش في بدر - وهم كفار - ليقول لهم أن سنة الله لا تتخلف

وأنه لا يعصمهم عاصم من أن يحق عليهم ما حق على قريش، فالعلة هي

الكفر" (70)

لكن ماذا لو أن الكفار انتصروا على المسلمين وكانت لهم الغلبة؟

والتاريخ قد شهد لمثل هذه الحالة، والعصر الحاضر قائم على هذه الشهادة إن

انتصار المشركين في هذه المعركة (أحد) ليس هو السنة الثابتة، إنما هو حادث

عابر، وراءه حكمة خاصة" (71)

فالسنة الثابتة إذاً هي الهزيمة للذين كفروا، والحقيقة الكبيرة

والواضحة النصر للفئة المؤمنة وما يزال القرآن يعمل بحقيقته الكبيرة، وبما

يتضمنه من مثل هذه الحقيقة - إن وعد الله بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون

وينحرفون عن منهج الله قائم في كل لحظة، ووعد الله بنصر الفئة المؤمنة - ولو

قل عددها - قائم كذلك في كل لحظة، وتوقف النصر على تأييد الله الذي

يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تتسخ، وسنة ماضية لم تتوقف" (72)

(70) المرجع السابق 371/1

(71) المرجع السابق 478/1

(72) الظلال 372/1

## الميدان الرابع : سنن الله مع المكذبين:

ما من رسالة سماوية إلا ووجد من يكذب بها ، هذا التكذيب سنة مستمرة تقابلها سنة التتكيل بهؤلاء المكذبين ، يقول سبحانه:وتعالى" وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم إبراهيم وقوم لوط ، وأصحاب مدين وكُذِّب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير" (73) .

يقول سيد - رحمه الله - " فهي سنة مطردة في الرسالات كلها ، قبل الرسالة الأخيرة ، أن يجيء الرسل بالآيات فيكذب بها المكذبون ، فليس الرسول ﷺ بدعاً من الرسل حين يكذبه المشركون ، والعاقبة معروفة ، والسنة مطردة" (74) .

ويؤكد القرآن هذا المعنى بضرب أمثلة توضيحية لهؤلاء المكذبين وخاصة الحواضر منهم - أهل القرى - لأنهم أكثر المكذبين بالرسول وأكثر عناداً لآيات الله ، وسنة الله جارية عليهم وهذه وقفة في سياق السورة (75) للتعقيب على ما مضى من قصص قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، وقفة لبيان سنة الله التي جرت بها مشيئته وحققها قدره بالمكذبين في كل قرية ، والقرية هي المدينة الكبيرة أو الحاضرة الكبيرة ، وهي سنة واحدة يأخذ الله بها المكذبين" (76) .

وطالما هناك مكذبون فهناك العذاب ، ويمتد هذا العذاب إلى الآخرة "هكذا في ضربة واحدة تتكشف مصارع الأولين وهم حشود ، وفي ضربة واحدة

(73) الحج 42-44

(74) الطلاق 2429/4

(75) أي سورة الأعراف (94-102)

(76) الطلاق 1335/3

تتكشف مصارع الآخرين وهم حشود ، وعلى مدى البصر تتبدى المصارع والأشلاء ، وأمامها ينطلق الوعيد ناطقاً بسنة الله في الوجود ﴿كَذَلِكَ نَفْعُ الْمُجْرِمِينَ﴾<sup>(77)</sup> ، فهي السنة الماضية التي لا تحيد ، بينما المجرمون يتوقعون مصراعاً كمصارع الأولين والآخرين يجيء الدعاء بالهلاك ، ويجيء الوعيد بالشبور ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ - (78)﴾<sup>(79)</sup>

ويستمر مسلسل المكذبين في طلب المعجزات والخوارق من الرسل ، كما يستمر تكذيبهم بعد هذه الخوارق ، عندما يكون العذاب والدمار قد رُصداً لهم حال تكذيبهم<sup>(80)</sup> وكانوا يطلبون خارقة ولا يفتنون إلى سنة الله في أخذ المكذبين بالدعوة بعد مجيء الخارقة<sup>(81)</sup>.

وأثار الأرض تشهد بمصارع هؤلاء المكذبين ، والمشكل في هذا أن متأخريهم لا يتعظون بتك الآثار ، ولكنهم يزدادون تكديماً ، أما المؤمنون فهي لهم عظة وعبرة ، وهي لهم تحذيراً من أن يقعوا في مثل هذه المزالق الخطيرة ، كما أنها بيان وتوضيح للناس كافة إن ما جرى للمكذبين بالأمس سيجري مثله للمكذبين اليوم وغداً ، ذلك كي تطمئن قلوب الجماعة المسلمة إلى العاقبة من جهة ، وكي تحذر الانزلاق مع المكذبين من جهة أخرى ، وقد كان هناك ما يدعو إلى الطمأنينة وما يدعو إلى التحذير ، وعلى إثر بيان هذه السنة يتجاوب النداء للعظة والعبرة بهذا البيان ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾<sup>(81)</sup> (82).

(77) الرسائل 18

(78) الرسائل 19

(79) الظلال 3793/6

(80) الظلال 1079/2

(81) آل عمران 138

(82) المرجع السابق 479/1

وفي موضع آخر يجزم سيد أن لا ضمان ولا أمان لهؤلاء المكذبين من جريان سنة الله عليهم وهو مثل مضى في التاريخ مكرراً، وقصّه الله في هذا الكتاب تفصيلاً، وهو يمثل سنة الله في المكذبين بآياته، يجريها حيث يشاء، فلا أمان إذن ولا ضمان لمكذب بآيات الله<sup>(83)</sup>.

**الميدان الخامس : سنن الله في هلاك الأمم :**

• الأمم التي أهلكها الله تعالى :

ذكر الله بعضاً من الأمم السابقة التي أهلكها وفق سننه الجارية، لأسباب سنذكرها لاحقاً، ومن بين هذه الأمم قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط، ومن الأمم العظيمة التي أهلكها الله الرومان والإغريق والفراعنة وغيرهم الكثير

" لقد أخذ الله قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط، كما أخذ الفراعنة والإغريق والرومان وغيرهم بهذه السنة، ووراء ازدهار حضارتهم ثم تدميرها، ذلك السر المغيب من قدر الله، وهذا القدر الظاهر من سنته، وهذا التفسير الرباني لهذا الواقع التاريخي المعروف "<sup>(84)</sup>.

❖ أمثلة لاتواع الهلاك:

ما من شك أن لكل انحراف نهاية، قد لا يوضح من أول الطريق لكنه سنة حتمية، هذه النهاية واحدة في مضمونها وهو الهلاك، مختلفة في شكلها وذلك من أمة إلى أخرى ومن انحراف إلى آخر، إنها حقيقة ينساها البشر- إلا من عصم الله - وعندئذ ينحرفون عن عهد الله وعن شرط الاستخلاف، ويمضون على غير سنة الله، رويداً رويداً وهم ينزلقون ولا يشعرون، حتى يستوفي الكتاب

(83) المرجع السابق 372/1

(84) المرجع السابق 1090,1091/2

أجله، ويحق وعد الله ثم تختلف أشكال النهاية مرة يأخذهم الله بعذاب الاستئصال - بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم - كما وقع لكثير من الأقوام، ومرة يأخذهم بالسنين ونقص الأنفس والثمرات، كما حدث كذلك لأقوام، ومرة يأخذهم بأن يذيق بعضهم بأس بعض، فيعذب بعضهم بعضاً، ويؤذي بعضهم بعضاً، ولا يعود بعضهم يأمن بعضاً، فتضعف شوكتهم في النهاية، ويسلط الله عليهم عباداً له - طائعين أو عصاة - يخضدون شوكتهم، ويقتلونهم مما مكنوا فيه، ثم يستخلف الله العباد الجدد لبيتليهم بما مكنهم، وهكذا تمضي دورة السنة، السعيد من وعى أنها السنّة (85).

#### ❖ أسباب هلاك الأمم :

##### 1. الذنوب :

فالذنوب لها آثار خطيرة في هلاك الأمم والشعوب، وتدميرها وهي سنة ثابتة وحقيقة ساطعة عبر التاريخ يوثقها للجميع يقول سيد قطب عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ (86) "وما يماثله وهو يتكرر كثيراً في القرآن الكريم إنما هو يقرر حقيقة، ويقرر سنة، ويقرر طرفاً من التفسير الإسلامي لأحداث التاريخ إنه يقرر حقيقة أن الذنوب تُهلك أصحابها، وأن الله هو الذي يُهلك المذنبين بذنوبهم، وأن هذه سنة ماضية ولو لم يرها فرد في عمره القصير، أو جيل في أجله المحدود، ولكنها سنة تصير إليها الأمم حين تفشو فيها الذنوب، وحين تقوم حياتها على الذنوب، كذلك هي جانب من التفسير الإسلامي للتاريخ، فإن هلاك الأجيال واستخلاف الأجيال من عوامله فعل الذنوب في جسم الأمم (87).

(85) الظلال 1037/2 1038

(86) الأنعام من آية (6)

(87) المرجع السابق 1038/2



## 2. فساد الأخلاق :

يقول سيد في تفسيره قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ (88) "حتى إذا فرحوا بما أوتوا وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة، واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها، وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشيته وتقواه، وانحصرت اهتماماتهم في لذائد المتاع، واستسلموا للشهوات، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هي عادة المستغرقين في اللهو والمتاع، واتبع ذلك فساد النظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق، وجر هذا وذلك إلى نتائجها الطبيعية من فساد الحياة كلها، عندئذ جاء موعد السنة التي لا تتبدل" (89)

فمجيء الفساد وانتشاره يحتم مجيء سنة الله في أخذ المفسدين فإذا كانت الفتنة سنة جارية لامتحان القلوب، وتمحيص الصفوف، فخيبة المسيئين وأخذ المفسدين سنة جارية لا بد أن تجيء" (90)

## 3. الظلم والتمرد على الله :

وتطهير الأرض من الظالمين سنة، وهو نعمة من نعم الله، ورحمة من رحماته على المظلومين، ذلك لأن الظالم عندما يظلم إنما يتمرد على سلطان الله، وإنما يدعي لنفسه خصيصة الاستعلاء والتكبر والألوهية وتعبيد الناس له وإخضاعهم لظلمته هذه الأمم لا تدرك أن هناك سنة، ولا تشعر أن الله يستدرجها وفق هذه السنة، والذين يدورون في فلكها يبهروهم إملاء الله لهذه الأمم وهي لا تعبد الله أو لا تعرفه، وهي تتمرد على سلطانه، وهي تدعي

(88) الأنعام من آية (44)

(89) الظلال 1090/2

(90) الظلال 2721/5

لأنفسها خصائص ألوهيته ، وهي تعيث في الأرض فساداً ، وهي تظلم الناس بعد اعتدائها على سلطان الله" (91)

#### 4. ترف قادتها واستغراقهم في المتاع :

من هم المترفون ؟ وكيف يستغرقون في المتاع ؟ وما واجب الشعوب تجاه هذا الصنف ؟ وما الذي ينتظرهم من الله تعالى ؟

" المترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة ، فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة ، حتى تترهل نفوسهم وتأسن ، وترتع في الفسق والمجانة ، وتستهر بالقيم والمقدسات والكرامات ، وتلغ في الأعراض والحرمات ، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً ، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها ، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها ، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي ، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها ، فتهلك وتطوى صفحتها والآية (92) تقرر سنة الله هذه ، فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك ، فكثرت فيها المترفون ، فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم ، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها ، فعم فيها الفسق ، فتحللت وترهلت فحققت عليها سنة الله ، وأصابها الدمار والهلاك" (93).

ولا يفهم من سياق الآية أن إرادة الله هي للتوجيه القهري الذي ينشئ السبب ( وإذا أردنا . ) لا ، ولكن إرادته سبحانه في السنن التي لا تتخلف ولا

(91) الظلال 1091/2

(92) قوله سبحانه وتعالى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها

تدميراً) (الإسراء:16)

(93) الظلال 2217/4 2218

تتبدل، ذلك لأن الله لا يأمر بالفسق ولا بالفحشاء، فهي سنة ترتب النتيجة على السبب

"إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف، وسنناً لا تتبدل، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج، فتنفذ إرادة الله، وتتحقق كلمته، والله لا يأمر بالفسق، لأن الله لا يأمر بالفحشاء، لكن وجود المترفين في ذاته دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها، وسارت في طريق الانحلال، وأن قدر الله سيصيبها جزاءً وفاقاً، وهي التي تعرضت لسنة الله بسماحتها للمترفين بالوجود في الحياة

فالإرادة هنا ليست إرادة للتوجيه القهري الذي ينشئ السبب، ولكنها ترتب النتيجة على السبب، الأمر الذي لا مفر منه لأن السنة جرت به، والأمر ليس أمراً توجيهياً إلى الفسق، ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترتبة على وجود المترفين وهي الفسق"<sup>(94)</sup>.

وحديثنا هنا في هذا السبب - ترف القادة - لا يعني أن هذا الترف كان فقط بأيدي قادة الأمم، لا، فقد تكون الأمة كلها قائمة على الترف المادي، والرقي الحضاري - بالمنظور المادي - ولكنها لم تستفد منه، فاستغرقت في هذا المتاع، فكانت سنة الله - الهلاك - مكتوبة على الجميع لقد كان لهذه الأمم من الحضارة، وكان لها من التمكين في الأرض، وكان لها من الرخاء والمتاع ما لا يقل - إن لم يزد - في بعض نواحيه عما تتمتع به اليوم أمم مستغرقة في السلطان والرخاء والمتاع، مخدوعة بما هي فيه، خادعة لغيرها ممن لا يعرفون سنة الله في الشدة والرخاء"<sup>(95)</sup>.

(94) الظلال 2218/4

(95) الظلال 1091/2

## 5. البطر\* والغرور :

" إن بطر النعم وعدم شكر الله عليها سبب من أسباب هلاك الأمم  
 فالله لم يهلك تلك القرى المتبطرة إلا وقد أرسل في أمها رسولاً ، فتلك هي  
 سنته التي كتبها على نفسه رحمة بعباده" <sup>(96)</sup> ، ﴿ وما كان ربك مهلك القرى  
 حتى يبعث في أمها رسولاً يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها  
 ظالمون ﴾ <sup>(97)</sup>

وتحدث سيد في موضع آخر من الظلال عن مثال لبطر أمة معاصرة يتوقع  
 أن تقع بها سنة الله كما وقعت على الأمم السابقة ، يقول سيد ملخصاً تجربته  
 لحياته البسيطة في أمريكا " وقد كنت أثناء وجودي في الولايات الأمريكية  
 أرى رأي العين مصداق قوله سبحانه ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ  
 أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ <sup>(98)</sup> ، وكنت أرى غرور القوم بهذا الرخاء الذي هم فيه ،  
 وشعورهم بأنه وقف على الرجل الأبيض ، وطريقة تعاملهم مع الملونين في عجرفة  
 مردولة ، وفي وحشية كذلك بشعة ، وفي صلف على أهل الأرض كلهم لا يُقاس  
 إليه صلف النازية الذي شهر به اليهود في الأرض كلها حتى صار علماً على  
 الصلف العنصري ، بينما الأمريكي الأبيض يزاوله تجاه الملونين في صورة أشد  
 وأقسى ، وبخاصة إذا كان هؤلاء الملونون من المسلمين ، كنت أرى هذا كله  
 فأذكر هذه الآية وأتوقع سنة الله ، وأكاد أرى خطواتها وهي تدب على  
 الغافلين" <sup>(99)</sup> .

\* البطر لا يعني فقط الإسراف من غير عذر مقبول ، لكنه يعني أيضاً إهمال الحق ولو كان بسيطاً ، والبطر  
 قد يكون في المعيشة أو كفر النعمة أو التباهي بالقوة والجبروت

(96) الظلال 2704/5

(97) القصص 59

(98) الأنعام 44

(99) الظلال 1091/1

## 6. غياب المصلحين:

غياب المصلحين لا غياب الصالحين <sup>(100)</sup> مدعاة لعذاب وهلاك الأمم  
﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ <sup>(101)</sup> ، يقول سيد :  
" يشير السياق - من طرف خفي إلى أنه لو كان في هذه القرى أولو بقية  
يستبقون لأنفسهم من الخير عند الله فينهون عن الفساد في الأرض، ويصدون  
الظالمين عن الظلم ما أخذ تلك القرى بعذاب الاستئصال الذي حل بهم، فإن الله  
لا يأخذ القرى بالظلم إذا كان أهلها مصلحين. وهذه الإشارة تكشف عن سنة  
من سنن الله في الأمم <sup>(102)</sup> .  
❖ لكل أمة أجل معلوم :

وأختم الحديث حول هذا الموضوع بالتأكيد على سنة الله في تحديد  
آجال الأمم، فكل أمة أجل محدود ومعلوم، إن سنة الله الماضية لا تتخلف،  
وهلاك الأمم مرهون بأجلها الذي قدره الله لها، مترتب على سلوكها الذي تنفذ  
به سنة الله ومشيئته ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ مَّا تَسْبِقُ مِنْ  
أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ <sup>(103)</sup> .

(100) الصالح هو من يهتم فقط بصلاح نفسه ولا يهتم بالآخرين ولا يكثر لفسادهم، ولا يسعى إلى الأمر  
بالمعروف والنهي عن المنكر، ومثله مثل العابد الإسرائيلي الذي أمر الله بهلاك بلده فتوجهت الملائكة بالدعاء  
والاستغفار وطلب السلامة لذلك العابد، إلا أن رد الله كان حازماً في مثل هذه المواقف كما ورد في الحديث (به  
فأبداً لأن وجهه لم يتعمر في سبيلي)، أما المصلح فهو من يهتم بصلاح نفسه وأسرته، ويسعى لإصلاح المجتمع من  
حواله وتحسينه من الفساد وسوء الأخلاق

(101) هود 117

(102) الظلال 1933/4

(103) الحجر 4، 5

## الميدان السادس : سنن الله في تغيير حال الناس :

إن مداولة الأيام بين الناس، وتغيير حالهم إنما يكون عبر سنن ثابتة، وليس عبر الصدف أو الأمانى. إن الله سبحانه لا يكل الناس إلى فلتات عابرة، ولا إلى جزاف لا ضابط له، إنما هي سنن يمضي بها قدره<sup>(104)</sup>.

وقد استطرد سيد في حديثه عن هذا النوع من السنة الإلهية في تفسيره لقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾<sup>(105)</sup> حيث قال : " فهو يتعقبهم بالحفظ من أمره لمراقبة ما يحدثون من تغيير بأنفسهم وأحوالهم فيرتب عليه الله تصرفه بهم، فإنه لا يغير نعمة أو بؤساً، ولا يغير عزاً أو ذلة، ولا يغير مكانة أو مهانة، إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم، وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون، ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم، ويجيء لاحقاً له في الزمان بالقياس إليهم وإنها لحقيقة تلقى على البشر تبعة ثقيلة، فقد قضت مشيئة الله وجرت بها سنته أن تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر، وأن تنفذ فيهم سنته بناءً على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم<sup>(106)</sup> .

(104) الظلال 1535/3

(105) الرعد 11

(106) الظلال 2049/4

### الميدان السابع : سنن الله في ميراث الأرض:

وفي مجال ميراث الأرض نلاحظ أن لله سنناً في ذلك، إذ أن وراثة الأرض لا تدوم لكافر أو فاسق، كما أنه وحتى تدوم للمؤمنين لا بد من الأخذ بهذه السنن، وهو ما أشرنا إليه في بداية بحثنا هذا من الجمع بين القيم الإيمانية والقوانين المادية، أخذاً بالأسباب حتى يتم التمكن والاستمرار فيه يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾<sup>(107)</sup>، يقول سيد في هذه الآية "وعلي أية حال فالمقصود بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ هو بيان سنة الله المقررة في وراثة الأرض"<sup>(108)</sup>.

ثم يسرد سيد سنة الوراثة من بداية تاريخ البشرية، موضحاً شروط هذه الوراثة لقد استخلف الله آدم في الأرض لعمارتها وإصلاحها، وتمييزها وتحويلها، واستخدام الكنوز والطاقات المرصودة فيها، واستغلال الثروات الظاهرة والمخبوءة فيها، والبلوغ بها إلى الكمال المقدر لها في علم الله ولقد وضع الله للبشر منهجاً كاملاً للعمل على وفقه في هذه الأرض - منهجاً يقوم على الإيمان والعمل الصالح - وفي الرسالة الأخيرة للبشر فصل هذا المنهج، وشرع له القوانين التي تقيمه وتحرسه، وتكفل التناسق والتوازن بين خطواته"<sup>(109)</sup>.

ثم لا يفهم من الوراثة فقط المعنى المادي لها، وهو الاستغلال الأمثل لموارد الأرض " في هذا المنهج ليست عمارة الأرض واستغلال ثرواتها والانتفاع

(107) الأنبياء 105

(108) الظلال 2400/4

(109) الظلال 2400/4

بطاقتها هو وحده المقصود، ولكن المقصود هو هذا مع العناية بضمير الإنسان، لئيلغ الإنسان كماله المقدر له في هذه الحياة" (110)

لكن قد يظهر أحياناً - في الطريق - ويغلب الجبارون والطفاة، وقد يغلب الكفار والفجار، نعم قد يغلبون لأنهم يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاتها استغلالاً مادياً، ولكن هذه ليست تجارب الطريق، والوراثة الأخيرة هي للعباد الصالحين" (111)

وذلك حينما يتعمق الإيمان في قلوبهم ويتجذر إخلاصهم للعمل من أجل إحياء الإنسان حياة كريمة، ويفيدون من خيرات الأرض وثرواتها، وهذا هو الاستخلاف الحضاري الحقيقي الذي بدأنا به بحثنا هذا ونختمه به، لنؤكد عليه لحاجة الأمة في هذا العصر إليه

" وما على أصحاب الإيمان إلا أن يحققوا مدلول إيمانهم، وهو العمل الصالح، والنهوض بتبعات الخلافة ليتحقق وعد الله، وتجري سنته ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، فالمؤمنون العاملون هم العباد الصالحون" (112).

(110) الظلال 2004/4

(111) الظلال 2400/4

(112) المرجع نفسه



## نتائج البحث:

1. إن مشروع إقامة الاستخلاف الحضاري للأمة يحتم على العلماء والمفكرين البحث عن السنن الإلهية، مع الاستفادة من الإبداع الإنساني، فالعصر الذي نعيشه في أمس الحاجة إلى الجمع بين السنن الإيمانية والمادية، وتثقيف الناس بها وتدريبهم على تمثلها في سلوكهم
2. التأكيد على تثبيت معادلة  
قيم إيمانية - قوانين طبيعية (مادية) <sup>إنسان</sup> استخلاف حضاري
3. أن لا تعارض بين السنن التي تجري على الإنسان بسبب إرادته المختارة وبأفعاله التي ينشئها حسب تفكيره وتخطيطه وبين إرادة الله تعالى ومشئته المطلقة
4. يقف المسلم والكافر أمام سنن الله في الحياة على حد سواء، فمن تعرض لها استفاد، ومن أهملها ألحق الضرر بنفسه
5. تعرض المؤمنین للفتن من سنن الله، لتمحيصهم ولإزداد إيمانهم، ولتأهيلهم إلى قيادة أنفسهم والبشرية جمعاء
6. ومن السنن الإلهية اليقينية الثابتة النصر والتأييد للمؤمنين بعد مصابرتهم ومجاهدتهم لأنفسهم وأعدائهم، والنكال والخزي للكافرين والمكذابين والمعاندين بعد زيادة طغيانهم وفساد أخلاقهم
7. ( إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ) ( الرعد 11 )

## المراجع

1. أنيس المقدسي أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، دار العلم للملايين، الطبعة السابعة عشرة 1989م
2. د حسن ناصر سرنار الشوكانى وسيد قطب والأبعاد الحضارية في حياتهما وتفسيرهما، إصدار وزارة الثقافة والسياحة صنعاء، طبع المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 2004م.
3. جمال الدين شبيب منهج قطب في الدعوة، دار البشير، الطبعة الأولى، 1994م.
4. سيد قطب في ظلال القرآن، دار الشروق - القاهرة، بيروت - الطبعة الشرعية الحادية والثلاثون 2002م ( 6 مجلدات).
5. د صلاح عبد الفتاح الخالدي المنهج الحركي في ظلال القرآن، دار المنارة - جدة - الطبعة الأولى 1986م.
6. د صلاح عبد الفتاح الخالدي مدخل إلى ظلال القرآن، دار المنارة - جدة - الطبعة الأولى 1986م .
7. د صلاح عبد الفتاح الخالدي سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، دار القلم - الدار الشامية، الطبعة الأولى، 1991م
8. د عبد الحليم عويس التأصيل الإسلامي لنظرية ابن خلدون ( كتاب الأمة)، إصدار وزارة الأوقاف القطرية، إبريل 1996م.
9. عبد الرحمن ابن خلدون مقدمة ابن خلدون، دار القلم - بيروت - الطبعة السادسة، 1986م.
10. د عبد الله الخباض سيد قطب الأديب الناقد، مكتبة المنار، الطبعة الأولى، 1983م.

11. محمد بن المكرم المشهور بابن منظور لسان العرب، مكتبة تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الثانية 1993.
12. محمد بن يعقوب الفيروزبادي القاموس المحيط، تحقيق مكتبة التراث، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية، 1987م.
13. صحيفة الصحة العدد (708) السنة 16 بتاريخ 2000/1/20م.